البـــؤساء

لفكتور هوجو

فى سنة ١٨٦٢ . أخرج فكتور هوجو روايته الخالدة « البؤساء » وكان قد لبث مدى ثلاثين عاما يفكر فى أن يكتب كتابا فى صنوف البؤس التى يعانيها الشعب ويستجمع له شـــوارد نظرياته الاخلاقية والسياسية فلم ينضج مشروعه الا بعد أعوام طويلة من التأمل والبحث ، وكان مشروع كتابه الأول يتألف من أربعة أقسام بسيطة هى :

قصة قديس (وهو الراهب ميريل) وقصة رجـــل (وهو جان فالجان) وقصة امرأة (وهى فانتين) ثم قصة دمية (وهى كوزيت)

ونظم فكتور هوجو هـذه الأقسام الأربعة فى سلك رواية طويلة متناسقة ساحرة البيان والمعنى ، تثير فى كل موقف من مواقفها وكل صفحة من صفحاتها أسمى العواطف الانسانية ، وتبعث فيه كوامن الاشفاق والرحمة . فاسم « البؤساء » وحده يستدر منا الاشفاق ، الاشفاق على جان فالجان الذى دفعه البؤس وحده الى سرقة رغيف من الخبز ، والذى ينبض فيه قلب رجل خير كريم مخلص ، والاشفاق على فانتين تلك الفتاة المسكينة التى أغويت ثم نبذت والتى تبيع حتى شعرها وأسنانها لتطعم ابنتها ، ولا تبيع شرفها الا نزولا منها على حبها الاموى ، والاشفاق على تلك الصغيرة المسكينة التى تعانى على يد أسرة تارديه أمر ضروب الاضطهاد والذلة ، ثم الاشفاق والحب نحو البؤساء والمساكين الذين يمثلهم القس ميريل ، وصلابة الواجب الذى يفهم على غير وجهه فى شخص الشرطى جافير

وهيكل القصة الاول بسيط مؤثر ، فهو يتلخص فى مكث جان فالجان بالمنفى وفى تحريره ، وفى توبته وعيشته عيشة رجل خير محب للانسانية فى معمل للزجاج ، ثم موت العاملة فانتين ، ودخول ابنتها كوزيت فى أسرة تارديه ، ثم قضية شان مايتو واتهام جان فالجان لنفسه وتسميه باسم مادلين ، ثم اعادته الى المنفى حيث يفر فيطارده الشرطى جافير ويلتجىء الى محلة « بتى بكبيس » . وتسير القصة بعد ذلك فى نسق رواية بوليسية يتخذ معظم أشخاصها اسماء مستعارة وتكثر فيها المفاجآت الغريبة وتأخذ القارىء أخذا عنيفا بمواقفها الشائقة .

وقد عنى فكتور هوجو بأن يلزم جانب الحقيقة دائما فى قصته وأن يقدم فيها القارئ أشخاصا حقيقيين وأوصافا دقيقة ، وحوادث معقولة ، فاما القس ميريل فهو يمثل شخصية حقيقية عاشت وعرفها فكتور هوجو ودرسها منذ سنة ١٨٢٩ وهى شخصية المونسنيور ميوليس أسقف « دينى » . وكان المونسنيور ميوليس قد آوى ذات يوم مجرما بائسا يدعى بيير موران وحمله على التوبة وانتهاج سبيل الخير . وقد وقعت معظم الحوادث التى يقصها فكتور هوجو حقيقة فى أسقفية « دينى » سنة ١٨٠٦ ، وهى حوادث يلخصها الواعظ انجيلان فيما يأتى : — « فى ذات يوم من أيام سنة ١٨٠٦ ، دخل بيير موران وهو مجرم أفرج عنه ، مدينة دينى نحو الساعة الخامسة مساء بعد أن قطع يومه سائراً ، وكان فى السادسة والعشرين من عمره ، فلبارده جميع أصحاب الفنادق ، وأنهكه الجوع والتعب ، فقصـــد بناء على نصح سيدة عجوز ، باب الاسقفية وطرق الباب طرقا عنيفاً ، فلبث الاسقف هادئا ، ونزلت خادمته روز الى شاحبة مضطربة وهى تقول — رباه ! من ذا الذى يطرق بهذا العنف ؟ ودخل بيير موران ، ولم يكن فى هيئته مايطمئن ؛ ومع ذلك فقد كان يبدو عليه الوجل والحيرة وعذاب المسغبة ، وكان وجله يتعارض مع كتفيه العريضين ووجهه القوى ، وكان جبينه ينضح عرقا ؛ فراعه محيا القس الوديع وغمغم بعبارات لا تفهم ، فهدأ القس روعه وخاطبه بتلك البساطة التى تذهب الى أعماق النفس ؛ وقدم اليه العشاء وهيئت له غرفة للنوم ... ، وشعر بيير موران أنه قد تغير وغدا شخصا آخر ، فدخل عرضا بستشفى متنقل ؛ وكان قويا متين البنية مثل جان فالجان ، فكان يؤدى عمله كالابطال ، وحمل بين يديه ضابطا جريحا ، ثم عاد بعد ذلك الى منزل القس وأحب ابنة أخته وخادمته روز الى ، ولكنه لم يجرؤ على طلب يدها ، فاختفى وقتل فى موقعة واترلو

البقية فى الصفحة المقابلة